نهاية الأيديولوجيات الكلاسيكية في عصر التكنولوجيا الرقمية

خليفة الشويشي

شهدت سبعينات القرن الماضي بداية الحديث عن نهاية السرديات الكبرى، وتشمل الأسئلة الكبرى المتعلقة بالعقلانية والتنوير والحرية وهي المفاهيم المركزية التي قامت عليها كل الحضارة الغربية لمدّة أربعة قرون.

قادت المآزق والأزمات التي عاشها العالم مع انتشار النظم الدكتاتورية والأحزاب الشمولية إلى القيام بمراجعات كبرى باتجاه تفكيك كل تلك السرديّات والأنساق الكبرى وخلخلة الأسس الفلسفية التي قامت عليها.

دفع هذا الانهيار إلى التحول نحو السرديات الصغرى المتمحورة حول الاهتمام بالذات ورعايتها وتأمين جودة الحياة للأفراد، وهي تتلخص في منظومة حقوق الإنسان بأجيالها المتعددة، وأنساقها الكثيرة حول الحريات الأساسية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية.

وكان المفكر الأميركي فرانسيس فوكاياما قد نظر في كتابه "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" إلى نهاية هذه السرديات في أعقاب انهيار الاتحاد السوفييتي وانحسار التجربة الشيوعية في أقطار المعسكر الشرقي سابقا مع نهاية الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي.

ومع سقوط جدار برلين وتوحد ألمانيا وانهيار المنظومة الاشتراكية دخل العالم مرحلة الأحادية القطبية والأيديولوجية بانتصار المنظومة الغربية الليبرالية.

نهاية الأيديولوجيا

اعتقد معتنقو الليبرالية أنهم بهزم الشيوعية ستبلغ الإنسانية مرحلة "نهاية التاريخ"، والتحكم في المستقبل وتثبيته وإرساء مرحلة الصلابة، لكن عقد التسعينات وتطوراته أدخلا العالم مرحلة السيولة.

صار كل شيء يمكن أن يحدث، في ظل حالة السيولة هذه، لكن لا شيء يمكن أن ننجزه في ثقة واطمئنان، فنشأت حالة من اللايقين تجمع بين الإحساس بالجهل واستحالة معرفة ما سيحدث. واقع كرسته التغيرات التكنولوجية وعولمة الاقتصاد وتزايد الفوارق.

ومثلت الثورة التكنولوجية تحولا هائلا في حياة الإنسانية من خلال مساهمتها في سهولة تداول الأفكار والمعلومات ومكنت الفرد من فرصة صياغتها ومشاركتها، وأنتجت أكبر "ديمقراطية" ممكنة كونيا عبر المشاركة في إبداء الرأي والتعبير الحر. ومع تتالي السنوات ازدادت جاذبية هذا الفضاء الافتراضي الحر وتعالت الأصوات معبرة عن تطلعاتها وانتظاراتها.

شكلت وسائل التواصل الاجتماعي الجديدة منصات للمراقبة المستمرة على كافة فئات الشعب وكل أشكال السلطات ودعمت مشاركة متزايدة للمواطنين في التعبير عن حاجياتهم وأوضاعهم. تلاقت هذه التطورات التكنولوجية مع تردي أوضاع فئات اجتماعية كثيرة، وبروز تفاوت طبقي رهيب، وهو ما دفع الكثير من الناس في شتى بلدان العالم إلى التعبير عن سخطهم واحتجاجهم على استشراء الفقر والخصاصة عبر هذه الوسائل.

أثرت هذه العوامل مجتمعة في تغير ملامح المشهد السياسي في الغرب عموما؛ حيث تقلصت شعبية الأحزاب التقليدية الكبرى في أوروبا وبدأت في التآكل التدريجي بينما صعدت أحزاب وحركات وقوائم حديثة التشكل لم تنضج هياكلها ولم تعرف هويتها.

> الأجيال الجديدة تقود مرحلة التغيير بأدواتها ورؤيتها للحياة، ضمن رؤية لا تكترث للأطروحات الكبرى لكونها لا تحقق الرغبات ولا تعبر عن الذات

وعبرت الانتخابات في عدد من الدول الغربية عن هذا التوجه حيث تمت الإطاحة بالأحزاب الأيديولوجية التقليدية. وصعد أكثر من اسم "مغمور" لا ينتمي إلى أي من التيارات التقليدية المهيمنة.

وهنا تشكل إيطاليا بصفة دقيقة التعبير الأمثل عن هذه التحولات الجارفة، فأحزابها التقليدية تدهورت لصالح قوى كانت محسوبة على الهامش السياسي.

فحزب "رابطة الشمال" بقيادة السياسي المغمور ماتيو سالفيني و"حركة الخمس نجوم" التي لم تكن حزبا سياسيا، تحولا إلى القوة الأولى في البلاد بعد هزمهما للأحزاب الرئيسية مثل "الحزب الديمقراطي" (يسار الوسط) وحزب "فوزا إيطاليا" اليميني الذي يقوده السياسي المخضرم سلفيو برلسكوني.

وتعبر الحالة البريطانية عن المدى الذي بلغته هذه التحولات، فقد فشل الحزبان التقليديان (العمال والمحافظين) في السباق إلى تمثيل بريطانيا في البرلمان الأوروبي فيما تقدم اليمين الشعبوي بمعدلات قياسية من خلال قائمة حديثة التشكل أزاحت تشكيلات حزبية ناضجة من طريقها.

وتشمل السيولة السياسية شواهد متعددة، من ذلك حالة الرئيس الأميركي دونالد ترامب والرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون والبرازيلي جايير بولسونارو والفلبيني رودريغو دوتيرتي وغيرهم الكثير. ويعد هؤلاء الزعماء الشعبويين شعوبهم بتغيير مسار النظام القائم والاستجابة لمطالبهم الحياتية مستغلين امتيازات العصر الشبكي وما يتيحه من إمكانية مشاركة كبرى لعموم أفراده، وخاصة الأجيال الشابة التي انخرطت بسرعة وكثافة به.

قادت الأجيال الشابة مرحلة التغيير هذه بأدواتها الخاصة ورؤيتها للحياة المختلفة عن سابقاتها ضمن رؤية لا تكترث للصلابة والأطروحات الكبرى لكونها لا تحقق الرغبات ولا تعبر عن الذات.

أولويات جديدة

بما أن هذه الفئة العمرية لا تؤمن بالأسئلة الكبرى المتعالية عن الواقع وإنما بالمعيش اليومي الذي يمثل مركز الاهتمام الحقيقي لديها، فقد لعبت هذه الأجيال دورا كبيرا في ترسيخ التحولات السياسية باتجاه إحلال وجوه جديدة لا ترتبط بالمقولات القديمة.

امتدت تأثيرات الأجيال الجديدة إلى العالم العربي، رغم حداثة الديمقراطية فيه، فقد كشفت الانتخابات الرئاسية التونسية الأخيرة أفول الأيديولوجيا، حيث بلغ الدور الثاني من الانتخابات مرشحان عابران للتصنيفات الأيديولوجية التقليدية وهما قيس سعيّد ونبيل القروي.

ويعد الوافد الجديد نسبيا على الساحة السياسية في تونس أبرز تجسيد لهزيمة الأيديولوجيات اليمينية واليسارية، حيث حظي بدعم إسلاميين ويساريين، ما ترك مناصريه ومنتقديه على حد السواء يتلهفون لتحديد هويته.

وقال سعيّد "لم أقدم وعودا تقليدية ولا برامج تقليدية للناخبين، لقد قدمت لهم أفكارا وتصورات جديدة تترجم في شكل قانوني مطالبهم". ويلتف الكثير من الشباب المتطوع حول المرشح الرئاسي ويعملون على تقديم الدعم له بالاعتماد على وسائل التواصل الاجتماعي خاصة الفيسبوك.

وفي الإطار ذاته يعتبر المرشح نبيل القروي أن انتخابات 2019 تمثل نهاية الأحزاب التقليدية أسوة بما يحدث في الديمقراطيات العريقة في العالم، قائلا بهذا الخصوص "لم تعد الشعوب لها ثقة في الأحزاب التقليدية، شاهدنا هذا في إيطاليا وإسبانيا والولايات المتحدة وبريطانيا، الديمقراطية بصدد المراجعة واتخاذ مفهوم جديد اليوم".

ورغم أن الانتخابات عرفت مشاركة أكثر من 24 مرشحا فإن مرشحي العائلات الأيديولوجية التقليدية منيوا جميعا بفشل ذريع. فأحزاب اليسار نالت نسبا هي الأضعف على امتداد مشاركاتها، فيما لم يقدر أفضل مرشحي الأحزاب الليبرالية على تجاوز نسبة 10 بالمئة. بدورهم فإن الإسلاميين الذين قادوا تونس منذ ثورة يناير 2011 شهدوا تراجعا كبيرا، وهو ما يعكس نهاية الأحزاب التقليدية في تونس.

وبعد 9 سنوات من الفشل في الاستجابة للحاجيات الحقيقية للتونسيين جاءت الانتخابات الرئاسية لتعكس رأي المواطنين في مختلف العائلات الأيديولوجية التقليدية، بعدما تبين عجزها وقصور رؤيتها وغياب أي خطة تنموية واقعية لديها، باختيار مرشحين بلا خلفيات أيديولوجية.

البرامج العملية تهزم الأيديولوجيا

اليسار غارق في الشعارات

عدوى مظلومية الإسلاميين تكبل اليسار العربي المغترب عن شعبه

بكائيات النضال والسجون والمنافي لم تعد تستهوي الشعوب

يعاني اليسار العربي من أزمات عدة كبّلته وجعلته مغتربا عن شعبه، حيث لم يقدر هذا الطرح الفكري في بعض دول المشرق من فرض نفسه كبديل يكون قادرا على إطفاء نار الفتنة الطائفية، كما لم يستطع في دول المغرب التي عرفت تغيّرات كبرى أن يخترق المجتمع، فلا يختلف حمدين صباحي في مصر عن حمة الهمامي في تونس، حيث يوجد إجماع من أقرب المقربين منهم على أنهم أضاعوا البوصلة، لأنهم يشتركون في نفس العلة المزمنة، التي هي سليلة عدوى المظلومية الإخوانية دون المضي قدما في القيام بمراجعات فكرية تصنع يسارا جديدا منفتحا على العالم، ومستقطبا لمختلف شرائح المجتمع.

وسام حمدي
صحافي تونسي

تونس – تتواصل الخيبات التي تنذر بانقراض أدبيات أحزاب يسارية عدة في العالم العربي ولعل أبرز ما يلخّص ذلك ما منيت به رموز الطرح الفكري الماركسي في تونس من هزيمة في انتخابات الرئاسة.

وعجز ثلاثة مرشحين للانتخابات الرئاسية من المدرسة اليسارية في تونس وهم: حمة الهمامي زعيم ائتلاف الجبهة الشعبية ومنجي الرحوي من حزب الجبهة الشعبية، وعبيد البريكي رئيس حزب تونس إلى الأمام، ليس فقط في المرور إلى الدور الثاني من الانتخابات الرئاسية، بل حتى في حصدهم مجمعين نسبة تفوق 2 بالمئة من أصوات الناخبين في الدور الأول من الانتخابات الرئاسية.

أزمة إبداع سياسي

وتدفع هذه الهزيمة الكبرى للأحزاب اليسارية في تونس، إلى النقاش مجددا بصفة أعمق في مردّ الخيبات التي تلاحق اليسار العربي برمته، حيث طرأت عوامل جديدة بخلاف الأمراض المزمنة التي يعاني منها اليساريين العرب وجعلتهم يتقدمون خطوة إلى الأمام، لكنهم يتأخرون خطوتين إلى الوراء.

تكمن السمة الجديدة التي ميّزت كل خطابات زعماء اليسار العربي، في انتهاجهم نفس شعارات الإسلاميين القائمة أساسا على خطاب البكائيات لاستمالة الناخب واستقطاب القواعد.

وهذه الخطوة الأخيرة، توصف بأنها دليل هام على فشل هذا المكون السياسي في ابتكار لغة جديدة تتحدث لغة المجتمع وتبحث في عمق قضاياه الكبرى والمفصلية.

وترجم حمدين صباحي رئيس "تيار الكرامة" اليساري في مصر، هذا الخطاب الغارق في المظلومية والذي يحمّل فيه المسؤولية عن الفشل إلى الآخر، وذلك بإصدار حزبه بيانا لوّح فيه بتجميد نشاطه السياسي احتجاجا على المساس بالحريات في البلاد.

ولا يجادل المتابعون لمثل هذا الخطاب الذي يعيد إحياءه حمدين صباحي، مسألة الحريات في مصر فحسب، بل إنهم يذهبون عكسه تماما عبر تناول عمق أزمة اليسار المصري والعربي بأسره، مبينين أن الطرح اليساري أوغل في تغطية فشله باستلهام شعارات المظلومية.

وتختلف التجربة اليسارية المصرية عن التجربة التونسية، فعلى الرغم من أن رواد اليسار في تونس حاولوا في بدايات ثورة يناير 2011 تجنب الوقوع في فخ المظلومية بتنازل جلهم عن تعويضات مالية رصدت لمن ناضل زمن نظام الرئيس الأسبق زين العابدين بن علي، إلا أنهم وقعوا في السنوات الأخيرة في نفس الفخ بتحميلهم عند كل خسارة تلحق بهم الأحزاب الأخرى أو ما يسمى بـ"السيستام" مسؤولية فشلهم.

ورغم أن أحزاب الدولة العميقة في تونس، منيت في الدور الأول من الانتخابات الرئاسية بخسارة مدوية، فإن اليسار وجد وفق العديد من المراقبين مبررات وبكائيات أخرى مفادها أن الفائزين في الدور الأول من الانتخابات (قيس سعيد ونبيل القروي) أحدهما مدعوم من السلفيين، فيما الثاني وجد في "الشعبوية" طريقا لاستمالة الناخبين.

وتوجّه الكثير من الانتقادات إلى أحزاب اليسار التونسي بأنها ظلت حبيسة الأيديولوجيا بل ومغتربة عن شعبها رغم أن أول الدروس التي يتم تلقينها لأي يساري مهما كانت توجهاته "لينينيا" كان أو "ستالينيا" أو "ماويا" أو "تروتسكيا" هي أن يكون مدافعا عن فكرة اقتصادية ماركسية صرفة مفادها "لا لاغتراب العامل في مصنعه".

> الشعوب العربية المحاصرة بأزمات اقتصادية واجتماعية لم تعد تستهويها تلك الخطابات الأيديولوجية القائمة أساسا على بكائيات النضال ومعاناة السجون والمنافي

ويظهر من خلال تحليل خطابات الأحزاب اليسارية في تونس ومصر والجزائر، أن هذه الأخيرة لم تتخلص بعدُ من معضلة "العمل السري" الذي رافقها طيلة عقود زمن الأنظمة الاستبدادية.

ويرى الكثير من المحلّلين أن ازدهار الحريات ولو بصفة نسبية في هذه البلدان ساهم في تعرية عجز الأحزاب اليسارية عن تقديم طروحات جديدة تكون متسقة مع الواقع ومنفتحة على العالم.

ويُجمع أكثر الدارسين للفكر اليساري في المنطقة العربية على أن المواطن العربي المحاصر بأزمات اقتصادية واجتماعية كبرى لم تعد تستهويه تلك الخطابات الأيديولوجية القائمة أساسا على بكائيات النضال ومعاناة السجون والمنافي التي بات يتماهى فيها اليسار مع جماعة الإخوان المسلمين.

وتشترك فصائل اليسار في بلدان المشرق مع يسار المغرب، تقريبا في نفس المشاكل والأزمات، لكن الرهانات والظروف تختلف بصفة كلية تقريبا، حيث طرحت منذ عقود على فصائل اليسار في المشرق تحديات مصيرية عنوانها محاربة الفتن الطائفية في لبنان أو خلق توازن سياسي يجنب المنطقة المزيد من الاصطفاف وراء إيران أو كذلك محاولة إيجاد بديل يساري لحركة حماس في فلسطين، لكن كل هذه المحاولات فشلت.

التماهي في الأمراض

دفع فشل أحزاب اليسار التقليدية بلبنان في مقارعة النظام الطائفي أو المساهمة في تشكيل خارطة جديدة تُحصر فيها أدوار حزب الله، إلى ميلاد تشكيلات يسارية مستقلة متمرّدة على "اليسار الرسمي"، على غرار "اتحاد الشباب الديمقراطي" و"المنتدى الاشتراكي" و"طلاب شيوعيون".

وشاركت هذه التشكيلات اللبنانية في الاحتجاجات ضد الطائفية، لكنها فشلت في إحداث تغيير لأنها اصطدمت بما تركته الأحزاب اليسارية من انطباعات لدى المواطن اللبناني الذي خبر كل نتائج تجارب اليسار في بلاده منذ عقود.

وفي سوريا، لا يمكن خاصة بعد عام 2011، الحديث عن وجود أي طرح يساري جاد، لكن يمكن طرح الملف من زاوية أن الفكر العروبي يعدّ من أهم شروخ اليسار العربي، وهنا يتراءى أن النظام السوري سقط علاوة على وقوعه في حرب أججتها سياساته القمعية في تناقض فكري تام، وهو ما يدفع إلى التساؤل عن جدوى الالتحاف بشعارات القومية العربية على غرار ما يفعله "الحزب العربي الاشتراكي السوري" في الوقت الذي يرتبط فيه ارتباط وثيقا بإيران المعادية للعرب.

وتحوّل اليسار الفلسطيني إلى موضع تساؤل ملحّ من قبل اليساريين أنفسهم قبل المحللين والمراقبين، وتتلخص أهم الاستفسارات حول رؤيته لمسألة التحرر الوطني الفلسطيني.

ورغم أنه لا يمكن وضع الحالة اليسارية الفلسطينية في نفس خانة مختلف التشكيلات اليسارية العربية لأن ولادتها منذ البداية لم تكن في منطلقاتها قائمة على جدل فكري داخلي، بل كانت أهدافها هي مواجهة إسرائيل، فإن ما تتهم به التشكيلات اليسارية الفلسطينية هو الإمعان في رفع الشعارات دون النجاح في صدّ مكونات الإسلام السياسي وتحديدا حركة حماس.

وتنتقد الأحزاب اليسارية الفلسطينية وعلى رأسها الجبهتان الشعبية والديمقراطية بأنها لم تلتصق بخطابها الاقتصادي، حيث يرى المؤرخون أن اليسار الفلسطيني لم يطرق طيلة تاريخه أبواب الإصلاح الاقتصادي في فلسطين.